



لا يمكن لأحد أن ينفي الإغراء الأصيل في نظريات المؤامرة، وقدرتها المستمرة على تجديد أسرارها، واكتشاف مفاتيح وخرائط تشويب مبدعة إلى م tahات الأيدي الخفية المتحكمة بالعالم، في انتصار أدبي للسرد والحبكة في مقابل جفافية وعلمية الواقع، وكمرد غاضب على الاحتياك النبوي لفهم العالم.

تبدي النظرية هنا كتجلي للنزعة الأصلية في الكائن البشري لاكتشاف المبهم وتفسير الكون، كالأساطير أو الأديان الوضعية أو الأيديولوجيات الشمولية أو السردية الكبرى بعامة، وكمظهر آخر لعدم اكتفاء الإنسان بالماضي والمرئي والوجود، من دون أن ينجيها هذا الامتياز الرومانطيكي من النزعات البدئية (الفطرية؟) في الإنسان، من كونها نتيجة عوامل نفسية واجتماعية وسياسية وثقافية تسمح (أو تدفع) لرواج سردية المؤامرة في ظرف وزمن ما، كأيديولوجيا هيمنة تعمي عن الواقع (بحسب مفهوم ماركس للأيديولوجيا)، ولا يغيبها الأمران من محاسبتها وتعريفها كخيال مضلل، وكأيديولوجيا هروب، من منطلق مسؤوليتنا الثقافية والثورية في الراهن الذي لا يسمح، كالماضي، بالانتصار التاملي للفني المحسن في مواجهة معاركنا ومسؤولياتنا الواقعية والملحّة والفجّة جداً.

تمييز بدئي:

لا بد من التمييز بداية بين ثلاثة مستويات من استدعاء المؤامرة:

أولاً: الحديث عن مؤامرة محددة لتفسير حادثة سياسية طارئة في نطاق محلي محدود، ويكثر هذا في الأنظمة الاستبدادية، لكسب الشرعية عبر العدو، وإن كانت بعض هذه المؤامرات تعني وجود مخططات واقعية محتملة، لا كأيديولوجيا.

ثانياً: الحديث عن مؤامرة دائمة تستهدف قضية معينة بحيث تعرف هذه القضية نفسها كموضوع لهذه المؤامرة العابرة للزمن، وهذا تستعمله الأنظمة الديكتاتورية أو المنظومات المغلقة والهويات المهددة بعامة لتحسين نفسها ضد النقد أو التفكير.

أما ثالثاً: ف تكون المؤامرة الأشمل، حيث تبلغ النزعة المؤامراتية تحقّقها المثالي ونطاقها الأوسع، ويمكننا التكلم وقتها من دون حواشٍ أو استدرادات عن المؤامرة كسردية كلية، وكأيديولوجيا شمولية، أو كدين جديد، إذ نتكلّم عن مؤامرة عابرة

للمكان والزمان، وقدرة على تفسير كل شيء، وتعلق بطوائف خفية تحوك الشر للعالم في مؤامرة مستمرة منذ عقود أو قرون، كالحديث عن الفرق الماسونية أو المؤامرة اليهودية على العالم (أو على القيصرية الروسية/الرابع الثالث/القومية العربية/الأمة الإسلامية... إلخ)، وفي الدول الشمولية فلا داعي لأن تكون هذه المؤامرات سابقة على نشوء الدولة، حيث الزمن نفسه يبدأ من هناك.

كما أنها تميز ما بين النزعة المؤامراتية وما بين سرية المؤامرة، حيث الأولى تدل على الميل النفسي لاستدعاء التفسير المؤامراتي كأيديولوجيا، بينما السرية تتعلق بمضمون المؤامرة نفسها. كمنتج أدبي وتخيلي في المقام الأول، الأولى تتعلق بالذات والثانية بالموضوع.

و سنخصص في هذا المقال المؤامرة كأيديولوجيا بالتحليل، كاستدعاء للأسرار والاستيهامات لتفسير الواقع بديلاً عن العوامل الموضوعية التي يمكن النقاش حولها إثباتاً أو دحضها، حتى نخرج من النقاش المكرر حول إثبات المؤامرة أو نفيها أو الحلول المسالمة التي تأخذ موقع الوسط، حيث لا تندرج "المخططات" أو مشاريع الهيمنة ضمن نطاق المؤامرة هنا، حيث ينتمي كلاهما لعالم الواقع الممكن تحليله أو التنبؤ والاختلاف حوله، لا لوسواس الأسرار.

ولئن اعتبر كارل بوبير أن العلم تعرضاً هو القابل للدحض، فإن سردية المؤامرة تأخذ قيمتها من لا قابليتها للدحض أو إثبات، وهو جهد يستحق الإعجاب ذاك الذي يبذله عصابيو المؤامرة في محاولتهم المستمية لإثبات وجود ما لا يمكن إثباته، وأن هذا المبهم بالذات هو ما يجب أن نرى من خلاله الواضح.

وكذلك سيكون للظاهرة التوتاليتارية النصيب الأوفر من تحليل النزعة المؤامراتية وسرديات المؤامرة، باعتبارها، كما يراهن هذا المقال، الأقرب للاستدعاء الراهن في محيطنا لنظريات المؤامرة، على الرغم من عدم وجود دولة توتاليتارية بالمعنى الصحيح الآن أو سابقاً.

النزعة المؤامراتية:

في كتابها الذي خصصته المفكرة السياسية الألمانية-الأميركية "هنه أرندت" للظاهرة التوتاليتارية كما اكتملت في الدولة النازية والدولة ستالينية "أسس التوتاليتارية"، أفردت هنه فصلاً خاصاً بالحملة الدعائية التوتاليتارية الموجهة نحو الجماهير.

لم تكن هذه الدراسة الأولى التي تكلم عن ظاهرة "الجماهير" في الفكر السياسي الحديث، والتي حملت الفاشيات والتوتاليتارات الأوروبيه والروسية التي فجرت الحربين العالميتين، كانت دراسة المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبيون "علم نفس الجماهير" ذات فرادة بتحويلها للمرة الأولى مجال علم النفس إلى الجمهور بعدهما اقتصر على الفرد، وبنبئيه إلى خطورة صعود ظاهرة الجمهور حين يتماهى الفرد مع وعي الجماعة وينحو نحو الرؤى الأبسط والأكثر عدوانية وهوياتية وراديكالية، أو كما عبر عنها من منطلق يميني بورجوازي "إن دخول الطبقات الشعبية في الحياة السياسية وتحولها التدريجي إلى طبقات قائدة يمثل إحدى أكثر الخصائص الأكثر بروزاً لعصرنا"، واعتبر أن هذه الجماهير برابرة العصر أو مغوله.

إلا أن تعميمات لوبيون وإطلاقاته الأشبه بالحكم وأحكام القيمة دفعت فرويد إلى الرد عليه لتحكيم المنهجية في كتاب صغير منحه الاسم ذاته "علم نفس الجماهير"، وتوسيع النقاش حتى غداً تخصصاً في ذاته، عدا عن اشتراك مدرسة التحليل النفسي بدءاً من فرويد (الذي كتب في ما بعد بنبرة متعبة ويايسة كتاباً مثل "الحب وال الحرب والحضارة والموت" و "قلق في الحضارة") وإبرهيم فروم (في كتابه المميز والملهم الذي لا يمل من التفسير "الخوف من الحرية") وكارل يونغ (في كتابه

الأشبّه بموعضة أخلاقية—نفسية لا تخلو من شعور مرير ومعلن بالذنب "النازية في ضوء علم النفس") وغيرهم في محاولة فهم الخراب الذي عمّ العالم، وغدت ظاهرة صعود التوتاليتاريّات والفاشيات مفتاح التحوّلات والمرجعات الكبرى في الفكر الغربي، في محاولة لفهم ماذا حصل.

بعد سيرورة صراع طويلة مع المجتمع والتاريخ، من انهيار الطبقات وتسوييف المجال العالمي، بحيث أصبح "السياسي" بحسب تعبير ونظريّة كارل شميت هو مجال الفعل الوحيد، وذابت الهويات الجزئية وتراجعت أحلام الرفاه، كانت التربية الخصبة لاستنباتات "الجمهور" الذي سيعمل نفسه بالدولة كذات وحيدة، بعدما لم تترك له الدولة أي ذات أخرى.

وكانت العلموية النبوية (بحسب تعبير حنّه) أو قيام الحادثة على أن كل شيء قابل للتفسير (كما يقول اشعيا برلين في "جذور الروماناتيكية")، والفلسفة التاريخانية التي تتبع حتميات عابرة للزمن، قد وفرت شرعية أكبر لقيام سردّيات كبرى تقدمها الدولة باعتبارها قطعيات يقوم على أساسها التاريخ، وإن انقلبت على جذرها العلموي في الحالتين النازية والشيوعية لصالح خطب الزعيم، إلّه الأرضي.

يزدهر الطلب على المؤامرات في المنظومات الشمولية هذه، حيث العوامل الأحادية والتقييمات الثنائية للعالم المحفوف بالأعداء حيث الحزب/العرق/الهوية التي غدت ذاتنا الوحيدة مهددة بحتمة قدرية، ومنتصرة بحتمية قدرية، حينها لا يغيب الواقع وحسب، وإنما يكون ثمة "احتقار عميق للواقع في حد ذاتها" فالأيديولوجيا (التي تبدأ كمشروع سياسي ثم تغدو رؤية للكون) هي الواقع الوحيد الذي نفّسّر العالم من خلال أهدافه أو انتصاراته أو هزائمه.

يمكن أن نقول بلغة التحليل النفسي إنه كان ثمة حالة من البارانويا العامة، متلازمة سردية المظلومية والبطولة التي يحصن بها الإنسان والمنظومات غير المستقرة نفسه، ولكن حين تتحول إلى حالة من العصاب العام، والدموي.

ولو خيرت هذا الجمهور، كما تقول حنّه، في أي موضوع "فسيكون المقياس الأول في انتقامه مقدار السر الذي فيه، بل السر في ذاته، ولا يعود لمصدر السر الأدنى أهمية".

علينا ألا نبالغ كثيراً في لوم جمهور التوتاليتاريّات والفاشيات هذا، والذي تحول بمجموعه إلى إنسان مستباح (بحسب تعبير جورجو أغامبين) للعنف النقي والقوة العارية، والذي انسحب من أمامه كل منظومات الاستقرار والتفسير من الدين إلى القانون إلى رفاهه الخاص، إلى الثورات التي علّق عليها أمل العدالة يوماً، أو العلم الذي لم يفسّر له معنى الوجود ولامعيارية الفوضى.

وفي اقتباس مفسّر من حنّه، نورده على الرغم من طوله، فقد كان "فرار الجماهير من أمام الواقع يشكّل إدانة للعالم، حيث تجبر على العيش دون أن تقدر على الاستمرار، طالما أن المصادفة باتت هي قانونه الأسمى، وطالما أن الكائنات البشرية تحتاج إلى تحويل الظروف الفوضوية والعارضة بصورة ثابتة إلى ترسيمه من التناقض النسبي، كانت انتفاضة الجماهير ضد واقعية الحس المشترك، ضد كل معتقدات العالم نتيجة تذرّرها، وقد انها موقعها الاجتماعي، وكانت الجماهير قد فقدت في الآن نفسه كل مجال العلاقات الجماعية هذا الذي يهبّ الحس المشترك معناه.

وكانت مبادرة الحملة الدعائية التوتاليتارية الآنفة تقضي بمواجهة التناهي الفوضوي والتصدي لاعتباطية الانحطاط التام، أو الخضوع لأيديولوجية ذات تماسك بالغ القساوة ومتوهّم بغرابة لا تقاس، على الأرجح تختار الجماهير التوجه الثاني، مستعدة لأن تدفع ثمنه غالياً من تضحيات الأفراد فيها، ليس لأن الجماهير منحرفة أو غبية، بل لأن هذا الانفلات يوفر لها حدّاً أدنى من احترام ذاتها، وسط الكارثة العميمّة!.

يشير إيميل دوركهایم في دراسته المشهورة عن الانتحار إلى نوع من الانتحار سماه "الانتحار الفوضوي" حيث تتعالى نسب القلق في أزمنة الفوضى وغياب الأنظمة المعيارية والقانونية ما يرتبط بزيادة في نسب الانتحار، على صعيد آخر يلاحظ أوليفييه رواً أن ثمة نزعة عدمية متصاعدة في الأجيال الأحدث من الجهاديين، حيث تندد العمليات الاستشهادية في الجيل القديم، بين الانتحار الخاصة والعدمية الذاتية، كان ثمة خيار آخر هو الانتحار العام والعدمية السياسية الشاملة.

الإسهام المسيحي - الأوروبي في سردية المؤامرة:

إضافة إلى العوامل السابقة في ظهور النزعة المؤامراتية حديثاً، إلا أن جوهر المؤامرة المتعلق بالسر يشجع أكثر على ازدهارها مع الحركات السرية السياسية منها والدينية، أو مع العقائد الصوفية التي تتحوّل تكون أكثر باطنية ومجازية، خاصة المتأثرة بالديانات المشرقة وانشغالها بأسرار الأعداد والعناصر والأشكال، سواء من قبل أهل الأسرار أنفسهم، أو من قبل خصومهم (هذا التلازم ما بين العقائد الباطنية والمؤامرات السياسية نجده واضحاً لدى د. بهاء الأمير مثلاً، وهو من أشهر ممثلي بارانويا المؤامرة المعاصرین لدينا).

قامت هيبة الكهنوت الكنسي وسلطته على حفظ الأسرار وتراتبية المعرفة اللاهوتية، والذي يظهر أكثر مع العقائد الباطنية في المسيحية نفسها أو الديانات المشرقة بعامة، عدا عن ارتباط هذه السلطة الرمزية بسلطة دنيوية في حقبة القرون الوسطى، حيث أزدهرت المؤامرات والجمعيات السرية، وما زالت مادة خصبة للأدب المتكئ على تبعها حتى اليوم، ولعلّ دان براون كان أشهر مثال على هذا الاتكاء للمؤامرات في السرد الأدبي، وإن كان "أمبرتو إيكو" ذا القامة الأدبية الأعلى في ذلك، سواء في رائعته "اسم الوردة" أو في "مقبرة براغ".

ويقاطع مع النزعة المؤامراتية وسرديات المؤامرة (ولدى الجمهور نفسه)، كهروب نحو السر والحميات الخفية التي تحرك الإنسان في التاريخ، ازدهار "قصص" العقائد المهدوية والهرمدون، والتعامل مع التاريخ كتمثيل للإرادة الإلهية الجبرية المحسنة لا لفعل البشري (تكلمت عن هذا في مقالى السابق "في بؤس أدلة التاريخ")، كالآيات لتفسير التاريخ أو انتظار نهايته، وهذا يقاطع مع التارikhانية كفلسفة في التاريخ شهدت ازدهاراً في حقبة ما قبل التوتاليتاراتيات ومهّدت لحميات مختلفة أكثر علمانيةً.

وعلى الرغم من "النزعة الإسلامية" الظاهرة في كثير من يتناولون نظريات المؤامرة كتفسير الواقع السياسي في عالمنا العربي اليوم، بعدها كان القوميون واليساريون العرب (قبل اضمحلالهم إلا ندرة منهم) روادها الكبار، إلا أن سردية المؤامرة الأكثر تداولاً الآن ليست ذات منشأ عربي أو إسلامي أصيل، بقدر ما تم استيرادها من التاريخ الغربي حيث تعود جذور هذه السردية البعيدة إلى القرون الوسطى الأوروبية، لكن تطور نظرية "مؤامرة يهودية عالمية" وانتشار "المعاداة للسامية" مع صعود القوميات الأوروبية يعود إلى نهايات القرن الثامن عشر، حين بدأ العلاقة بين رجال المال اليهود والدولة الوطنية في أوروبا أكثر وضوحاً، وتم تفسير الثورة الفرنسية نفسها بأنها من صناعة مؤامرة ماسونية، ولكن صعود هذه المؤامرة إلى النقاش والانقسام السياسي تجلّى في قضية دريفوس في فرنسا (1894 م - 1906 م)، حين انهم النقيب ألفريد دريفوس (فرنسي الجنسية يهودي الدين) بتسريب معلومات عسكرية إلى ألمانيا، واحتاج الأمر 12 عاماً لتربيته، انقسم خاللها المجتمع السياسي والثقافي في فرنسا بسبب القضية ونماذج معاداة السامية وعلمانية الدولة.. إلخ.

بينما جذور سردية المؤامرة القريبة والأكثر تأثيراً وشمولية تعود إلى حقبة صعود التوتاليتاراتيات والفاشيات في الغرب، ولعلّ أكثرها اعتماداً على المؤامرة في حملتها الدعائية كانت دولة الرايخ الثالث بزعامة الفوهرر أدولف هتلر، والاتحاد السوفييتي في حقبته السтаلينية.

تميز حنّه أرندت بين المؤامرات الستالينية والنازية وإن كانت تنطلق من جذور وأهداف الحملة الدعائية التوتاليتارية نفسها، وبينما اعتمد النازيون الألمان على مؤامرات موجودة مسبقاً في الوعي الغربي، مثل القول بالمؤامرة اليهودية العالمية أو الفرقة الماسونية أو بروتوكولات حكماء صهيون، فقد كان البلاشفة أكثر إبداعاً وتجديداً في أدبيات المؤامرة، ومنذ عام 1935م، كما تقول حنّه، راحت تتوالى المؤامرات العالمية الشديدة الغموض والسرية، الواحدة تلو الأخرى، في الحملة الدعائية البلاشفية: إذ جرت بادئ الأمر مؤامرة التروتسكيين، ثم مؤامرة العائلات المائتين، وأخيراً حدثت الدسائس الإمبريالية (أي الكونية) الشنيعة التي جعلت تقرّفها الاستخبارات السرية البريطانية أو الأميركيّة.

تمكن المجازفة والمصادرات بتأويل ذلك بأن سردية المؤامرة بتعريفها كممارسة أدبية منحازة للخيال والسر، كانت روسيا (وفرنسا كذلك حيث ازدهرت هذه السردية أيضاً) بميراثها الأدبي الضخم في القصة والسرد، وحروبها الأهلية الداخلية الطويلة، أكثر قدرة على تجديدها وإبداعها وتغليفها بالأحداث والأسرار من الألمان الذين تنقلوا ما بين الرومانية الشعرية والمنهجية الفلسفية، ولم تتطور لديهم مدرسة في القص والسرد تضارع الأدب الروسي بأعلامه الكبار من غوغول وتشيخوف وتولستوي وديستويفي، وحتى في هدف الحركة التوتاليتارية المعلن، فقد كان هدف الشيوعية الحال بعالم تتلاشى فيه الطبقات وتسود العدالة، أكثر شاعرية وإنسانية من الحلم النازي العلمي بتصفيّة الأعراق وسيادة العرق الآري ذي المواصفات الخلقية الأفضل.

وحتى في سردية المؤامرات اليهودية التي اتكأ عليها النازيون في دعایتهم وفي سياسة الإبادة، فقد كان للروسين الفضل الأكبر في بنائها، منذ ما قبل الثورة البلاشفية حتى.

ظهرت "بروتوكولات حكماء صهيون" للمرة الأولى، كما يشير د. عبد الوهاب المسيري في كتابه "البروتوكولات واليهودية والصهيونية" عام 1905م ملحاً لكتاب من تأليف سيرجي نيلوس وهو موظف كان يعمل في الكنيسة الروسية الأرثوذكسية، وله اهتمامات صوفية باطنية متطرفة، وكان عنوان هذا الكتاب "العظيم في الحقير وال المسيح الدجال كإمكانية سياسية وشيكة"، ويقول فيه إن الإمبراطورية القيصرية الروسية هي وحدها القادرة على إنقاذ العالم من حكم المسيح الدجال، وادعى نيلوس أنه تسلم نسخة هذا الكتاب من سيدة فرنسية سرقتها من أحد أقطاب الماسونية في فرنسا.

وحتى لو ظهرت هذه النسخة من العدم وفي العدم، فإن مضمونها يقدم أدلة شبه صريحة على أنها أُلفت بأمر من القيصر الروسي أو بوحي من الدفاع عن مملكته، لا من مؤتمر سري يدون فيه اليهود أهدافهم في بازل عام 1897م كما تدعي البروتوكولات.

تقول إحدى البروتوكولات:

"ونحن على الدوام نتبني الشيوعية ونحتضنها متظاهرين بأننا نساعد العمال طوعاً لمبدأ الأخوة والمصلحة العامة للإنسانية، وهذا ما تبشر به الماسونية الاجتماعية".

وتقول بروتوكولات أخرى:

"من فوائد ترويج الفردية، أن العامة سينظرون إلى الملوك نظرتهم إلى أبناء الفناء العاديين!"، لأنه "بغير الاستبداد المطلق لا يمكن أن تقوم حضارة لأن الحضارة لا يمكن أن تروج وتزدهر إلا تحت رعاية الحاكم كائناً من كان" ولأنه "ما من أحد يستطيع أن يستعمل فكرة الحرية استعملاً سيداً".

هذه البروتوكولات كما يقول المسيحي "تضفي على اليهود صفات الإله المتحكم في كل شيء، القادر على كل شيء، والذي يعز من يشاء ويذل من يشاء، فهل يعقل أن نصدق أن هناك من البشر العاديين من يتسمون بصفات الله عز وجل حتى لو أدعى حكيم حكماء صهيون ذلك؟ ألا يتناقض هذا مع فكرة الإيمان بالله نفسها؟".

ولكن على الرغم من هذا الابتدال المفضوح هنا، إلا أن هذه البروتوكولات وما ترتبط به من مؤامرة ماسونية يهودية عالمية، كانت عالمة عصر كامل انتشرت فيه نزاعات المعاداة للسامية والهروب نحو الأسرار وبارانويا المؤامرة، وال الحاجة لتهديد عالمي دائم توسيع قيام مشاريع توسيعية عالمية، ولا مقارنة على الإطلاق بين الانتشار الهائل لهذه البروتوكولات في روسيا والبلاد الأوروبية منذ صدورها وحتى ما بعد نصف قرن، وما بين تداولها وتأثيرها المحدود في عالمنا العربي اليوم.

لقد كان التأثير الأخطر للبروتوكولات ليس إثارة كراهية اليهود، والذي كان موجوداً أساساً، وإنما كما تلاحظ "حنه" بذكاء، فإن صيت البروتوكولات وانتشارها الواسع كانا قائمين على الإعجاب بها والتعلم منها أكثر من قيامهما على الكراهية، "لقد استخدمت النازية بروتوكولات حكماء صهيون بمثابة نموذج تحذيه في سبيل تنظيم الجماهير المستقبلي وذلك لبلوغ إمبراطورية العالمية المنشودة"، ولم يقرأ هتلر كتاباً كما قرأ البروتوكولات، حتى إن حنه تنقل عن "هاینریش هملر" الرجل الثاني في إمبراطورية النازيين وقائد الشرطة السرية أن هتلر كان يحفظ البروتوكولات عن ظهر قلب، هملر نفسه الذي قال "إننا نعزو فضل اكتشافنا فن الحكم إلى اليهود"!!

إن التفوق النازي في استخدام المؤامرة اليهودية هو كما تقول حنه إن معاداة السامية لم تعد شأنًا يختلف فيه، " وإنما باتت الاهتمام الحميم لدى كل فرد في وجوده الشخصي.. كان من نبأة الحملة الدعائية للنازية أن حوت العداء للسامية إلى مبدأ ذي تعريف ذاتي" ، ولم يكن ذلك بآليات الدعاية وحدها، وإنما بآليات التنظيم، حيث كان يُطلب من كل ألماني أن يثبت نقاء نفسه/ عرقه الآري وخلوه من أي علاقة باليهود حتى عام 1750 م كي يُقبل للتوظيف في الدولة، وكلما زادت نسبة هذا النقاء أمكن للألماني أن يترقى في أجهزة الدولة، أو أن يزداد فخراً بنقاءه العرقي، أو، وهذا أفلهما أهمية بالنسبة لمؤمن بالدعائية التوتاليتارية، أن يحتمي من حملات التصفية والتخوين.

كان هذا المبدأ الأخير مما استلهمنه الحملة المكارية في أميركا الخمسينيات ضد المؤامرة الشيوعية (التي تريد هدم الديانة المسيحية كما روج لها جوزيف مكارثي)، حيث لم يعد مطلوباً من الإنسان أن يثبت عدم انتسابه إلى حزب شيوعي، وإنما أنه لم يكن شيوعياً في يوم ما.

يدلّنا الدرس النازي خاصّة، وأوروبا الفاشيّات والتوتاليتاريّات بعامة، على مدى ما يمكن لسرديّات المؤامرة أن تصنع، حيث لا تقرن الفعالية بالصدقية، وعلى تأثير المؤامرة الحقيقي لا بنجاح أهدافها وإنما بصناعة أعدائها، المؤمنين بها، على شاكلتها، تصبح المؤامرة الكونية هي الإله المقلوب، ولكنه يبقى إلهًا، وطالما حاول الإنسان أن يبلغ آلهته التي صنعها، وأن يبلغها.

الإسهام الإسلامي في سردية المؤامرة:

لم يكن النزوع التامري واضحًا في التجربة الإسلامية الأولى، بحكم ضعف سلطة الدولة، ولا احتكارية سلطة العلماء لأسرار الديانة، أو تفسير النص المقدس، وإقرار الإسلام بالتأثير البشري في التاريخ بحسب نظرية الكسب الأشعورية أو الآيات الصريحة بنسبة التغيير للإنسان. إلا أن ذلك الأمر تغيّر مع تطوير الصوفية لنظام الأسرار، ونشأة العقائد الباطنية المشتقة من الإسلام والمتأثرة بالديانات والفلسفات المشرقة الإشراقية، وتنامي الصراع السياسي-المذهبي في الدولة وعليها.

ولعل أولى نظريات المؤامرة التي ظهرت تاريخياً وأشهرها هي مؤامرة "عبدالله بن سبأ" لإحداث الفتنة بين الصحابة، وبعيداً عن الجدل التاريخي حول الشخصية (بين مثبت لوجودها ونافٍ)، فإن الملاحظ أن المتأخرین كانوا أكثر حرصاً على وجود هذه المؤامرة وقوتها وتغلغها، أي على تعریفها كمؤامرة (يمکن مراجعة كتاب "العواصم من القواصم" لابن العربي المالكي بتحقيق محب الدين الخطيب)، والتي اقتربت بالصراع السياسي-المذهبی بين الشیعة والسنّة، حيث يتم تأکید أن عبدالله بن سبأ كان یهودياً وأسلم وتشیع ودعا لعبادة عليٰ وقال بتناخ الأرواح وفتن بين الصحابة (هذا قبل تبلور التشیع كعقيدة وقبل ذیوع الديانات التناصخیة أو الحلویة أو القائلة برجعة الأرواح).

بينما الروایات الأقدم عن "الفتنة" على لسان أطرافها كانت تحيل إلى اختلافات مرئية في الاجتهاد الفقهي أو الانتماءات العشائرية والاجتماعية (أهل الشام وأهل العراق) أو الصراع المفضّل على السلطة، أكثر مما تکتم عن أن ثمة مؤامرة من طرفٍ سريٍ جرّتنا إلى الحرب، وكانت تستخدم مفردة "الفتنة" كإحالّة إلى الفوضى المعيارية التي عاشها أطراف الحرب أنفسهم، وشعورهم بالقلق أو الشرعية النسبية في موقفهم من أول اقتتال داخلي بين المسلمين.

وعلى الرغم من اتخاذ المؤامرة اسم التحذير من الفتنة أحياناً في كتابات الفقهاء أو خطب السياسيين، إلا أن الفتنة في التنظير الفقهي السياسي (الأحكام السلطانية وكتب الأحكام الشرعية ومرايا الأمراء.. إلخ) كانت تحيل في الغالب إلى احتمال اجتماعي-سياسي بانهيار الأطر التنظيمية والسلطة المرجعية في حال الصراعات غير المحسوبة/ المحسومة على السلطة، ما ینبئ بالفوضى المرعوبة، وتعطل تطبيق الشريعة.

وعلى الرغم من أنه من الشائع بحكم الطابع الديني الذي اتخذته الدولة والمجتمع في التجربة الإسلامية التاريخية، أن يتخذ كل صراع سياسي صبغة دینية، ما یعطي شرعية موضوعية لاتهام المتأمرين على الحكم بكونهم انطلقوا من أسباب مذهبية، خاصة في ما یتعلق بالشیعة واليهود، إلا أن هذا التفسير سیتضخم كثيراً في ما بعد المشروع الصهيوني والثورة الإسلامية الإيرانية، حيث تتم استعادة هذه الثنائية في المزاوجة ما بين التشیع واليهودية في نظريات المؤامرة الشائعة، وسيتم تأويل التاريخ بأثر رجعي لمطابقتها معها، بينما نلاحظ أنه قبل الثورة الإسلامية الإيرانية فقد كان التركيز على المؤامرة اليهودية وال Mansonیة كافياً، حيث كانت تهمة محمد جمال الأفغاني أنه ماسوني ورسول للمستعمرات كافية من دون استدعاء تشیعه، أما اتهام الوزراء اليهود بإسقاط الدول الأندلسية فهو يغفل مؤامرات الحكام المسلمين أنفسهم بين بعضهم، والحقيقة الواضحة بأن اليهود كانوا يخشون من سيطرة المسيحيين على الأندلس أكثر من المسلمين أنفسهم، بالنظر إلى شعارات محاكم التفتيش وسلوکها في المناطق التي استولت عليها.

وكان العقائد الباطنية التي نشأت كجماعات سرية تربة خصبة لتكوين سردیات مؤامرة غنیة، سواءً من قبل خصومها الذين يخذونها موضوعاً للمؤامرة، وإن كان من طور هذه المؤامرات كسردیات أسرار أدبية هم المستشرقون أكثر من المسلمين أنفسهم، والإسماعيليون (الحشاشون) هم المثال الأشهر على ذلك، والذين كون منهم المستشرقون (رواية الموت لفلاديمير بارتول مثلاً)، وتم استعادة هذه الفرق حالياً لتغذية نظريات المؤامرة العابرة للزمن والمکان (أيديولوجيا المؤامرات من المستوى الثالث كما قسمّنا في البداية)، بينما رکز المؤرخون المسلمين على هذا التهديد الديني والسياسي لمذهب الاستقرار (السنّي)، كمؤامرات أكثر وضوحاً وأقلّ تجدیداً لنفسها مع الأجيال، نلاحظ مثلاً أنه حتى الحلاج الذي لم یتح له تكوين جماعة سياسية-عسكرية تحمل مشروعه، إلا أنه تم ترويج وجود مؤامرة يجهّز لها في قلعته حيث يخدع الناس بألعاب يصوّرها لهم كمعجزات، كما نقرأ ذلك لدى القاضي التنوخي في نشور المحاضرة، لكننا لا نتكلّم هنا عن سردية مؤامرة تظهر كأيديولوجيا، بقدر ما هي مؤامرة سياسية مؤقتة ومحتملة تاريخياً.

بينما المؤامرات العابرة للتاريخ، وذات المصدر الديني كنبوءات أو حروب في نهاية العالم، فتعود كذلك في الغالب إلى أصول يهودية- مسيحية مثل الهرمدون، أو تحاول تقليد نبوءات نوستراداموس القروسطية.

بينما نظريات المؤامرة الأكثر ذيوعاً (الفرقة الماسونية، حكومة العالم الخفية، المخابرات البريطانية.. إلخ) هي ذاتها الموروثة من اليسار الروسي والنازيين الألمان الذين ورثوا أكثرها من التراث المسيحي- الأوروبي، أو من غربيين معاصرین يستشهد لهم لمنح قيمة إثباتية ورمزية أعلى للمؤامرة (كما هو الكتاب ذات الصيت "أحجار على رقعة الشطرنج" لمؤلفه الكندي وليام غاي كار)، أو من الديكتاتوريات العربية التي طالما تعالت بالمؤامرات لقمع شعوبها، حيث توفر المؤامرة لدى اقترانها بالسلطة هيمنة الوهم على الواقع بالعنف المسلح، لا بالعنف الرمزي وحسب.

وفي الأدب العربي الحديث، لم يوجد أدب حقيقي يعتمد على سردية المؤامرة التي تنتهي لتراثنا وثقافتنا، أو يطورها ويجدد بناءها، وهنا يمكن أن نتكلّم بحقّ عن فقر الإسهام الإسلامي وضحالته في سردية المؤامرة.

ختام:

إن الاعتقاد بفرقة سرية هي المحرك الرئيس للتاريخ، هو من أقدم العقائد البشرية حيال الواقع والتاريخ بعامة، ويسهم الواقع الاجتماعي السياسي الذي يفكك بنى الاستقرار والأمان الرمزي والمادي للإنسان، في تنمية النزعة المؤامراتية بين الجماهير الفاقدة للمعنى والمعتبة من فوضى الواقع وعدوانيته، حيث توفر منظومة تفسير متماسكة وملجأ من فقدان القدرة على التأثير، حيث يمكن لكشف المؤامرة التي تمنعنا من الإنجاز أن يكون أهمّ من الإنجاز نفسه.

وكما يسهم واقع الديكتاتوريات التي تبلغ أوجها في المنظومات التوتاليتارية، ومراحل الفشل والهزيمة، في تنامي مساحة السرّ لل فعل والقول خارج رقابة السلطة المهيمنة، أو في اللجوء إلى السرّ للتفسير بعد فشل المرئي في تقديم حلّ لاعتراضية العالم، وحيث تزدهر الجمعيات السرية والعقائد المهدوية (المهدي المنتظر/ الماشيّح/ السفياني/ الأعور الدجال.. إلخ)، فإن العقائد الباطنية التي تعتمد على حجب المعرفة وتراتبية الأسرار، تشجع على تنمية النزعة المؤامراتية، وعلى خلق وتعقيد سردية المؤامرة الخاصة بها.

كما أن الثقافات التي امتلكت ميزة أكبر في السرد والقصة في تراثها الأدبي، أقدر على تقديم سردية مؤامرة أغنى وأكثر تعقيداً وتشويقاً وقدرة على الانتشار، كما نلاحظ بالنسبة لروسيا وفرنسا وإيطاليا.

في عالم ما بعد 2011م، حيث الثوار الباقون بالسلاح على حلمهم في سوريا وليبيا هم استثناء اليأس العميم، وحيث انتهت ثورات ودفنت أخرى في رماد ثوارها، وملّت أو تعبيت أو هاجرت شعوب من الحلم الصعب إلى النسيان الميسّر، ومن رهان الغد إلى أمان الماضي. هنا في جيل الثورات المثقل بالدم والحروب والهزائم والأحلام المجهضة، والشعارات التي غدت سجونة، والهتافات التي حولتها الثورات المضادة إلى مراتٍ للرفاقي الراحلين، ولافتات الحرية التي ارتدت السواد وشنقت حاملتها، وبين المقابر الجماعية وخيم المشردين وقوارب الباحثين عن اللجوء... تجد نظرية المؤامرة تربتها الأخضب كملجاً متماسك وآمن للهروب من إلحاد الذنب والمسؤولية عن التاريخ وفوضى الواقع العظيمة، وهنا أيضاً توشك أن تولد جماهير وتوتاليتاريات أخرى بحثاً عن مسار انتقام، أيّ انتقام كان.

إن مسؤوليتنا كمثقفين ومنتمنين للثورات العربية، لن تتمثل يوماً في التصالح مع ترويج الأوهام، ولو كانت مخدّراً مريحاً للمتعبيين، وإنما أن نستمر في محاولة الفهم والمحاكمة العقلانية للواقع الموضوعي وتحليل أسباب قصورنا وأخطائنا الذاتية، مهما رفضنا هذا الواقع أو خان أحلامنا العادلة والأخلاقية بعالم لا يسود فيه الشرّ ولا يتحكّم بأقداره الطغاة.

المصادر: